﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾ [التَّوبة: 72]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين أوصاف المؤمنين المرضيين، وجزائهم بالجنّات والرّضوان

لَمّا أعقب المنافقين والمنافقات فيما سبق بذكر عقابهم بنار جهنَّم، أعقب المؤمنين والمؤمنات بذِكْر ما وعدهم من نعيم الجنَّات؛ فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾.

وأيضًا لَمَّا ذكر صفات المؤمنين والمؤمنات ورحمته لهم بالإجمال بيَّن ما وعدهم في هذه الآية من الجزاء المُفصَّل برحمته في مقابلة ما أوعد به المنافقين والكفَّار فيما سبق[1].

ومنها لَمَّا ختمَ البيانُ القرآنيُّ الآيةَ السّابقةَ بوصفِ العزَّةِ والحكمةِ المناسبِ لافْتتاحِها بالموالاةِ وتعقيبِها بآيةِ الجهاد، وذلكَ بعدَ الوعدِ بالرَّحمةِ إجمالًا، أتبعَها بما هو أشدُّ التئامًا بها بيانًا للرَّحمةِ وتفصيلًا لها، ترغيبًا للمؤمنينَ بالإنعامِ عليهم بكلِّ ما رامَهُ المنافقونَ بنفاقِهم في الحياةِ الدُّنيا، وزادَهم بأنَّه دائم، وأخبرَ بأنَّ ذلكَ هو الفوزُ لا غيره، وأيُّ فوزٍ أعظمُ وأمتعُ من جنّاتِ الإقامةِ الدّائمةِ وفوقها وأعلى منها ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فلا يسخطُ عليهم بعدَه أبدًا[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾: السُّكونُ: ثبوتُ الشَّيء بعد تحرُّك، ويُستعمَلُ في الاسْتيطان، نحو: سكنَ فلانٌ مكانَ كذا، أي: اسْتوطنَه، واسْمُ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/423.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/545.

المكان: مَسْكن، والجمعُ: مساكن، قالَ تعالى: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: 25]، ويُقالُ: سَكَنتُه، وأَسْكنتُه، قالَ تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: 37][1]. ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: قصورًا ومنازلَ طيِّبةَ القَرار[2].

2) ﴿طَيِّبَةً﴾: طابَ الشَّيءُ يطيبُ طَيْبًا، فهو طيِّبٌ، والطِّيبُ: ضدُّ الخَبيث، قالَ تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّساء: 3]، وأصلُ الطَّيِّب: ما تستلذُّه الحواسّ، وما تستلذُّه النَّفس، قالَ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: 172]، ومنه قولُه تعالى - هنا -: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾، أي: طاهرةً زكيَّةً مُستلذَّة[3].

3) ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾: الجنَّةُ: كلُّ بستانٍ ذي شجَرٍ يسترُ بأشجارِه الأرض، وتُسمَّى الأشجارُ السّاترةُ: جَنَّة[4]. وعَدَنَ بمكانِ كذا: استقرَّ وأقامَ به، ومنه المَعْدِنُ: لمستقرِّ الجواهر[5]، ومنه قولُه تعالى - هنا -: ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾، أي: اسْتقرارٍ وثباتٍ وإقامةٍ دائمة[6].

4) ﴿ٱلْفَوْزُ﴾: الفَوْزُ: الظَّفَرُ بالخيرِ مع حصولِ السَّلامة، يقالُ: فازَ يفوز، إذا نَجا، وهو فائز، وفازَ بالأمر، إذا ذهبَ به وخلص، ويُقالُ لمن ظَفَرَ بخيرٍ وذهبَ به، قالَ اللّٰهُ تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185][7]، ومنه قولُه تعالى - هنا -: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: دونَه كلُّ فَوْزٍ ممّا يعدُّه النّاسُ فَوْزًا[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّٰهُ تعالى في هذه الآية بما أعدَّه للمؤمنينَ والمؤمناتِ من الخيراتِ والنَّعيم المقيم في جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها، ومساكنَ حَسَنةَ البناءِ طيِّبةَ القَرار،

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 417، وابن منظور، لسان العرب: (سكن).
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/337.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 3/435، والرّاغب، المفردات، ص: 527.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 204، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (جنن).
(5) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 1/263 - 264.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 10/179، والرّاغب، المفردات، ص: 553، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (عدن).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 4/459، والرّاغب، المفردات، ص: 647.
(8) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/542.

ورِضَا اللهِ عنهم أكبرُ وأجلُّ وأعظمُ ممّا هم فيه من النَّعيم، وذلكَ هو الفوزُ الَّذي لا يُضاهيه فوزٌ ويَقصُرُ عنه أيُّ فَوْز[1].

ما أعدَّه الله لعباده في الجنَّة، يُبْهِرُ العقول، ويبلغ المؤمن به منتهى السُّول

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ فصلِ هذه الآيةِ عن سابقتِها:

جملةُ قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ اسْتِئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التَّوبة: 71] وفي هذا الاستئنافِ نشوءُ وعدٍ عن وعدٍ سابقٍ مؤكِّدٍ لمكانةِ المؤمنينَ والمؤمناتِ ورفيعِ منزلتِهم عندَ اللهِ ﷻ[2].

تأكيدُ وعدِ اللهِ للمؤمنينَ والمؤمنات، بعُلُوِّ منزلتهم

بلاغةُ التَّقابُلِ بين صفات المؤمنين وصفات المنافقين:

جاءَ قولُه ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية، في مقابَلةِ قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ [التوبة: 68]، وذلكَ ترغيبًا للمؤمنينَ بكلِّ ما رامَه المنافقونَ بنفاقِهم في الحياةِ الدُّنيا، وبما سيكونُ عليه مآلُهم وحالُهم في نارِ جهنَّمَ خالدينَ فيها ولهم فيها عذابٌ مقيمٌ، في حين جاءَ الوعدُ بالرَّحمةِ بما هو أشدُّ التئامًا بها بيانًا لتلكَ الرَّحمةِ وتفصيلًا له وتحفيزًا للمؤمنينَ والمؤمناتِ ليكونوا من أهلِ هذه الرَّحمة المستحقّينَ لها الحائزينَ على نعيمِها الدَّائم[3].

ترغيبُ المؤمنينَ في رحمةِ اللهِ، وتنفيرُهم من مسالكِ النِّفاق

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿وَعَدَ﴾، في السّياق:

جاء التَّعبير القرآنيُّ بالوعد في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ حثًّا لهم في الالتزام بأوامر الله ونواهيه حتى تتحقَّق لهم الرَّحمة الّتي وُعِدوا بها والنَّعيم كما ذكرته الآية.

تحفيز السَّامع على بذل الجهد، لنيل الخير النّمير، والمقام الأثير

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/336 - 337.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/263.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/545.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي في ﴿وَعَدَ﴾:

تأكيدُ تحقُّقِ الوعدِ للمؤمنينَ والمؤمناتِ، بدخولِ الجنَّات

صُدِّرتِ الآيةُ الكريمةُ بالفعلِ الماضي ﴿وَعَدَ﴾، إمّا لأنَّه إخبارٌ عن وَعْدٍ تقدَّمَ في آيِ القرآن، قُصِدَ منه الإخبارُ والتَّذكيرُ به لتحقيقه، وإمّا أن يكونَ قد صيغَ هذا الوعدُ بلفظِ المُضيِّ على طريقةِ صيَغِ العقود، مثل: (بِعتُ، تصدَّقتُ) لكونِ تلكَ الصّيغةِ معهودةً في الالتزامِ الَّذي لا يتخلَّف. والأمرانِ كلاهما سائغانِ علَّةً للتَّعبيرِ بالفعلِ الماضي في ﴿وَعَدَ﴾، والنَّتيجةُ فيهما واحدةٌ وهي تحقُّقُ وَعْدِ اللّه، ووعدُ اللّهِ تعالى لا يتخلَّف[1].

دلالةُ إسناد الوعد للفظ الجلالة في السّياق:

عظمةُ الوعدِ وعلوُّ قَدْرِه، بنسبته إلى من لا يخلف الميعاد

أُسْنِد الوعدُ في قوله سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى لفظ الجلالة لتأكيد عظمته؛ لأنَّه جاء من العظيم سبحانه، وأنَّه واقعٌ لا محالة لعدم تعرُّضِه للموانع الّتي تعتري فعل البشر لعجز أو لضعف، أمَّا وعد اللّه فلا يتخلَّف لقدرته وعزَّته.

دلالة التَّعبير بالاسميَّة ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾:

رسوخُ صفةِ الإيمانِ فيهم، تكرمة وعلوّ

جاء التَّعبير القرآنيُّ بالجملة الاسميَّة ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ دون الفعليَّة لما تحمله من كمال الإيمان ورسوخه في قلوبهم، وثباتهم عليه. وهذا هو المناسب لهذا النَّعيم الَّذي أعدَّه اللّه لهم، أمَّا التَّعبير بـ (الذين آمنوا) فإنه يدلّ على مَنْ اتّصف بالإيمان ولو كان إيمانه قليلًا.

علّة الإظهارِ في مَوْضعِ الإضمارِ:

زيادةُ التَّقريرِ بعليَّةِ وصفِ الإيمانِ، لحصولِ متعلَّقِ الوعد

جاءَ بيانُ اللّهِ بذكرِ المؤمنينَ والمؤمنات، وكانَ يمكنُ أنْ يُقال: (وعدَهمُ اللّهُ)، فجاءَ الإظهارُ في مقامِ الإضْمارِ، لتقريرِهم في ذهنِ السّامعِ؛ ليتمكَّنَ تعلُّقُ الفعلِ بهم فَضْلَ تمكُّنٍ في ذهنِ السّامع، وليعلمَ مكانةَ المؤمنينَ والمؤمناتِ ومقامَهم عندَ اللّهِ تعالى،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.

وفي ذلك زيادةُ التَّقريرِ والإشعارُ بعليَّةِ وصفِ الإيمانِ لحصولِ ما تعلَّقَ به الوعد[1].

دلالة جمع والتنكير ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

جاء التَّعبير القرآنيُّ بصيغة الجمع لكلمةِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ نكرةً لتُفيدَ عمومَ الجنّات، فهي مُشتملةٌ على جِنانٍ كثيرةٍ مُرتَّبةً على حَسَب اسْتحقاقاتِ العاملينَ، لكلِّ طبقةٍ منهم جنّاتٌ من تلك الجِنان[2]، فهي ليستْ جنَّةً واحدة، وإنَّما هي جنّاتٌ: جنَّةُ الفِرْدوس، وجنَّةُ عَدَن، وجنَّةُ النَّعيم، وجنَّةُ دارِ الخُلْد، وجنَّةُ المأوَى، وجنَّةُ دارِ السَّلام، وجنَّة علّيين[3].

كثرة الجِنان على حسب استحقاق العاملين

بلاغة المجاز في إسناد الجري إلى الأنهار:

أُسنِد الجري إلى الأنهار، في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، مع أنَّ الّذي يجري في الحقيقة هو الماء؛ لأنَّ النَّاظر إلى الماء، وهو يجري لا يرى النَّهر، ولكن يرى الماء، ولذلك اختفى النَّهر في جريان الماء، وأصبح النَّاظر لا يرى غير الماء، وهذا الإسناد من باب المجاز.

جريان النّهر صورة جميلة، تبين المتعة بالجزاء، في قمّة العطاء

فائدةُ وصفِ الجنّات، بجريان الأنهار:

في قولِه تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ كنايةٌ عن دوامِ خُضرتِها، وبَهجتُها نَضِرةٌ تسُرُّ أهلَها وسُكّانَها تمامَ السُّرور وغايةَ الحُبور[4].

دوامُ خُضرة الجنّات، تأمين لدوام المتعة بها

فائدةُ الفعل المضارعِ ﴿تَجۡرِي﴾:

دلَّ استعمال البيانِ الإلهيِّ للفعلِ المضارعِ ﴿تَجۡرِي﴾ على دوامِ واسْتمرارِ جريانِ الأنهارِ من تحتِ الجنّات، وهذا يدلُّ على تمامِ

جريانُ الأنهارِ من تحتِ الجنّاتِ، دائمٌ لا ينقطع

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/575، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/257.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 204.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/545.

النَّعيم ودوامِه؛ فالنَّفس لا تَملُّ ولا تسأم من رؤية الأنهار؛ لأنَّ المتعة فيها متجدِّدةٌ، وفيها إشارةٌ علميةٌ إلى أنَّ الجري للأنهار العذبة يحافِظ عليها من التَّعفُّن.

معنَى ﴿مِن﴾ في: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾:

من صور مُتعة الرَّائي استحضارُ صـــورة جَـــرْي الأنهار

﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ ابْتدائيَّة، فهي إمّا من تحتِ أشجارِها وإمّا من تحتِ عليّاتِها، وإمّا من تحتِها بالإضافة إلى مبدأ، أي: مَبْدئِها، كما تقولُ في دارَيْنِ متجاورتَيْنِ متساويتي المكان: هذه تحت هذه، وفيها إشارة إلى تصوير حالة الرَّائي بمُتعته في استحضار صورة جَرْي الأنهار، ويمكنُ أن تكونَ ﴿مِن﴾ بيانيَّةً، أي: بيانَ وجودِ هذه الأنهار[1].

دلالة الضَّميرِ في: ﴿تَحۡتِهَا﴾:

تصوير الجنّات تـــقـــريـــبـــيّ، وحقيقتها مالا يخطر على بال

يعودُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿تَحۡتِهَا﴾ على الجنّات أي: تجري الأنهارُ من تحتِ الجنّات، وذلكَ باعْتبارِ مجموعِها المشتَملِ على الأشجارِ والأرضِ النَّابتةِ فيها، ويجوزُ عَوْدُ الضَّميرِ إلى الجنَّاتِ باعْتبارِ الأشجار؛ ولأنَّها أهَمُّ ما في الجنَّات[2].

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

إرادةُ جميعِ أنـهـارِ الـجـنَّة، تشويقٌ لنعيمها اللّامحدود

في تعريفِ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بـ (أل) إفادةُ إرادةِ الجِنْس، كما تقولُ: لفلانٍ بستانٌ فيه الماءُ الجاري والتِّينُ والعِنَبُ وألوانُ الفواكه، تُشيرُ إلى الأجناس الَّتي في علمِ المخاطَب، أو يرادُ: أنهارُها، فعوَّضَ التَّعريفَ باللّامِ من تعريفِ الإضافةِ كقولِه تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: 4].

أو يُشارُ باللّامِ إلى الأنهارِ المذكورةِ في قولِه تعالى: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/58.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354.

مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ [محمد ﷺ: 15][1]؛ فتكونُ اللّامُ لامَ التَّعريفِ العَهديّ، أي: ما عُهِدَ من أنهارِ الجنَّةِ المذكورة، ويمكنُ أنْ يكونَ الدّاعي إلى التَّعريفِ هو التَّفنُّن؛ لئلّا يُعادَ التَّكيرُ مرَّةً ثانيةً، فَخولِفَ بينَهما في اللَّفظِ اقْتناعًا بسُورَة التَّعريف[2].

فائدةُ ذِكْرِ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

لَمَّا كانَ النَّعيمُ لا يكمُلُ إلّا بالدَّوام، قالَ ﷻ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ تطمينًا لأهلِ الجنَّةِ ونُزلائها بأنَّ هذا النَّعيمَ الَّذي أقامَهم اللّهُ فيه هو نعيمٌ موصولٌ لا يَنفصِل، ودائمٌ لا يَنقطِع، وذلكَ تفريقًا بين نعيم الدُّنيا ونعيم الآخرة؛ لأنَّ نعيم الدُّنيا مُعرَّضٌ للانقطاع؛ لذلك كانَ موقعُ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالًا من ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ لأصحابِ الجنَّة، مُعبِّرًا عن إقامتِهمُ الدّائمةِ فيها، لا كَرْبَ فيها ولا تَنْغيصَ من أحد[3].

نعيمُ أهلِ الجنَّةِ لا يكمُلُ إلّا بدوامِه

عَوْدُ الضَّمائرِ في: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

يعودُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ إلى المؤمنينَ والمؤمنات، ويعودُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿فِيهَا﴾ إلى الجنّات، أي: المؤمنونَ والمؤمناتُ خالدون في جنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهار.

المؤمنونَ والمؤمناتُ، يُتمُّ اللهُ عليهم النّعمة بالخلود في الجنّات

معنَى الظَّرفيَّة (في)، في هذا الموضع:

أفادَ حرفُ (في) معنَى الظَّرفيَّةِ المكانيَّة، بدليلِ ما تَقدَّمَه من ذكرِ الموضعِ وهو: ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وهذا دليلٌ على تمكُّنهم من النَّعيم وتمكُّن النَّعيم منهم كتَمَكُّنِ الظَّرف في المظروف.

الظَّرفيَّة مكانيَّةٌ، وهي داخلُ الجنّات

فائدةُ عَطْفِ جملة ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾، على الجنَّات:

عطفَ بيانُ اللّهِ قولَه: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ على

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/259.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/355.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/545، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/134.

في الجنّاتِ قصورٌ ومساكنُ طيِّبة، تزيد في المتعة بالجنّة

قوله: ﴿جَنَّٰتِ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ للمؤمنينَ والمؤمناتِ في الجنّاتِ قصورًا ومساكنَ طيِّبةً[1]، وفي هذا إشارة إلى أنَّ هذا العطف يُفيد أنَّ ذِكْر الجنَّات بما فيها من جَرْي الأنهار والخضرة للرفاهيَّة، أمَّا المساكن فتأتي للخصوصيَّة؛ فكأنَّ الآية تشير إلى أنَّ المؤمن له في الجنَّة مكان رفاهيَّة، ومكان سكنٍ خاصٍّ يأوي إليه.

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾، وجمعِها:

الدَّلالةُ على عمومِ وتنوُّعِ المساكن، في جنّات الله العامرة

جاءَ التَّنكيرُ والجمعُ في ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾ للدَّلالةِ على عُمومِها وكثرتِها وتنوُّعِها؛ فهي قصورٌ ومنازلُ ودورٌ من اللُّؤلؤِ والزَّبرجَدِ والياقوتِ الأحمر[2].

فائدةُ وصفِ المساكنِ بأنَّها طيِّبةٌ:

مساكنُ الجنَّةِ تستطيبُها النُّفوس، ليس فيها خُبثٌ ولا نَجَسٌ

وصفَ بيانُ اللهِ مساكنَ الجنَّةِ بأنَّها طيِّبةٌ فقالَ تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ للدَّلالةِ على أنَّ منازلَها تستطيبُها النُّفوس، ويَطيبُ فيها العيش، وليس فيها شيءٌ من خُبْثِ المساكنِ من الأوْساخِ وآثارِ علاجِ الطَّبخِ ونحوِه، نَظير قولِه تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: 25][3].

دلالة إعادة ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾:

التَّفنُّنُ بالتَّعبيرِ والتَّنويهِ بالجنّات، وبيانُ شأنِها العظيم

ذَكرَ بيانُ اللهِ ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بهذا اللَّفظِ من الإظهارِ في مقامِ الإضْمارِ؛ إذْ تقدَّمَ ذِكرُها من قبلُ مع التَّفنُّنِ في التَّعبيرِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/464.

(2) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/577، وورد في حديث رسولِ اللهِ ﷺ ما يدلُّ على ذلك بما رواه أبو هريرة وعمرانُ بن حُصَين عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهما قالا: سألنا رسولَ الله ﷺ عن ذلك، أي: عن قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: 72] فقال ﷺ: «قصرٌ في الجنَّةِ من لؤلؤةٍ فيه سبعون دارًا من ياقوتةٍ حمراء، في كلِّ دارٍ سبعون بيتًا من زُبَرْجَدَةٍ خضراء، في كلِّ بيتٍ سبعون سريرًا، على كلِّ سريرٍ سبعون فراشًا من كلِّ لون...» الحديث، أخرجه ابن المبارك في الزُّهد، ص: 550، والطَّبرانيّ في المعجم الكبير: 18/160، الحديث رقم: (353)، وأورده المنذريّ في التَّرغيب والتَّرهيب: 4/285، وقال الهيثميّ في مجمع الزَّوائد: 7/31، وفيه جِسر بن فرقد، وهو ضعيف، وقد وثَّقه سعيد بن عامر، وبقيَّةُ رجال الطَّبرانيِّ ثقات.

(3) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/577، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.

والتَّنويهِ بالجنّات، وزيادةِ الاهْتمامِ بها لشأنِها العظيمِ ومُقامِها الكريم، ولذلك لم يَقُل: (ومساكنَ طيِّبةً فيها)[1].

نكتةُ إضافةِ الجنّاتِ إلى ﴿عَدْنٍ﴾:

أضافَ بيانُ اللّهِ الجنّاتِ إلى ﴿عَدْنٍ﴾ فقالَ تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾. وهذه الإضافةُ تدلُّ على أنَّ هذه الجنّاتِ هي دارُ الخُلدِ والاسْتقرارِ المستمرِّ مع صحَّةِ البدن وطيبِ المَقرِّ والموطنِ والمَنبت[2].

الحسّات خُلودٌ دائمٌ لا ينقطع، ونعمة مستقرّة لا تنتهي

فائدةُ العطفِ في قولِه تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾:

عطفَ بيانُ اللّهِ تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ على قولِه تعالى في صدرِ الآية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ لبيان أنَّه كما وعدَ اللّهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهار، كذلك وعدَهم رضوانًا منه ﷻ، فهو وعدٌ بوعدَيْن[3].

الجمع بين الحُسْنَيَيْن، من إغداق المنعم على أهل الجنّة

نكتةُ العُدولِ الإعرابيِّ في لفظ ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ بالرَّفعِ وحقُّه النَّصب؛ لأنَّه معطوفٌ على ﴿جَنَّٰتِ﴾ الَّذي هو مفعولٌ به مبتدأ، وساغَ الابْتداءُ به؛ لأنَّه وُصِفَ بقولِه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ و﴿أَكْبَرُ﴾: خبرُه، ولم يَسلُكه في نظامِ الموعودِ به؛ لأنَّه متحقِّقٌ في ضمنِ كلِّ موعودٍ، ولأنَّه قُصارَى ما ترقَى إليه آمالُ النُّفوس[4].

الرِّضوان قُصارَى ما ترقَى إليه آمالُ النُّفوس

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾:

تنكيرُ قولِه تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ للتَّنويع، يدُلُّ على جِنْسِ الرِّضوان، وإنَّما لم يُقْرَنْ بلامِ تعريفِ الجِنْسِ ليُتَوَسَّلَ بالتَّنكيرِ إلى الإشعارِ بالتَّعظيم، فإنَّ رضوانَ اللّهِ تعالى عظيم[5].

تعظيمُ رِضوانِ اللهِ، من حيث أنّه الرّضوان على الحقيقة

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/542، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/546، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/134.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.

دلالة ﴿مِّنَ﴾ في: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّةٌ بيانيَّةٌ، فمبدأُ الرِّضوانِ من اللهِ، وبيانٌ أنَّ شيئًا يسيرًا من رضوانٍ أكبرُ من ذلك كلِّه؛ لأنَّ رضاهُ تعالى هو سببُ كلِّ فَوْزٍ وسعادة؛ ولأنَّهم ينالونَ برضاهُ عنهم تعظيمَه وكرامتَه، والكرامةُ أكبرُ أصنافِ الثَّواب، ولأنَّ العبدَ إذا علمَ أنَّ مولاهُ راضٍ عنه، فهو أكبرُ في نفسِه ممّا وراءه من النِّعم، وإنَّما تتهنَّأُ له هذه النِّعمُ برضاهُ ﷻ [1].

إنَّ شيئًا يسيرًا من رضوانٍ، أكبرُ من نعيم الجِنان كلّه

نكتةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ (الله) في موضعِ إضمارِه:

أظهرَ بيانُ اللهِ لفظَ الجلالةِ الكريمِ (اللّه) بقولِه: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وكانَ يمكنُ إضمارُه فيقولُ: ورضوانٌ منه أكبر؛ وذلكَ لأنَّ المقامَ هنا مَقامُ تشريفٍ وتكريمٍ وتعظيم، واللّهُ ﷻ هو أصلُ الخيرات، ورضوانُه أعظمُ وأكرمُ وأشرفُ مَطْلبٍ ومَنال.

المقامُ مَقامُ تشريفٍ وتكريم

نكتةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿أَكْبَرُ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أَكْبَرُ﴾ تفضيلٌ لم يُذكرْ معه المفضَّلُ عليه لظُهورِه من المَقام، أي: أكبرُ من الجنّات؛ لأنَّ رضوانَ اللهِ أصلٌ لجميع الخيرات، ولا شيء من النِّعم وإنْ جلَّتْ وعَظُمتْ يماثلُ رِضوانَ اللّه، وفيه دليلٌ جَليٌّ على أنَّ السَّعاداتِ الرُّوحانيَّةَ أَعْلَى وأَشْرفُ من الجُثمانيَّة[2].

متعلَّقُ (أكبر) ظاهرٌ من المقام، فهو أكبرُ من الجنّات

نكتةُ فَصلِ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

جاءَ فصلُ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لتقريرِ ما تقدَّمَه وتأكيدِه

تقريرُ ما تقدَّمَ في سياقِ الآية، وتأكيدُه

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/202، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/577، وأخرج البخاريُّ ومسلم رحمهما الله من حديث أبي سعيد الخدريّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ يقول لأهل الجنَّة: يا أهل الجنَّة، فيقولون: لبَّيكَ ربَّنا وسَعْدَيْك والخيرُ في يَدَيْك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضَى وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحدًا من خَلْقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا ربَّنا وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ قال: أُحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»، يُنظر: صحيح البخاريّ: الحديث رقم: (7518)، وصحيح مسلم: 9/2829.

(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/542، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/265.

من أنَّه هو الفوزُ العظيمُ لا غيرُه، والخَتْمُ بهذا التَّقريرِ للتَّشويقِ إلى القيامِ بما يُحقِّقُ هذا الفوزَ العظيم، وفيه ترغيبٌ في الجهادِ المأمورِ به بعدَها؛ لكونِه من أفرادِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكر، والدّاعيَ الأَعْظمَ إلى الموالاة، ودخولِ الجنّاتِ والفوزِ بالرِّضوان[1].

دلالة التَّعبير باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تفخيم النَّعيم وتعظيمه، من مقاصد المعنى هنا

﴿ذَٰلِكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إشارةٌ إلى جميعِ ما ذُكِرَ من الجنّاتِ والمساكنِ وصفاتِهما والرِّضوانِ الإلهيّ، وما فيه من معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ درجتِه في العِظَمِ والفخامة[2]. وعلوِّ مكانته، وارتفاعِ درجته.

بلاغةُ القَصْرِ في فاصلةِ الآية:

الفَوْزُ العظيم لا فوز بعده

وردَ القَصْرُ في فاصلةِ الآيةِ الكريمةِ بضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ وتعريفِ طرفي الجملةِ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾، و(أل) التَّعريف في ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ و﴿ٱلْعَظِيمُ﴾، فكانتْ هذه الأركانُ كلُّها محقِّقةً لمفهومِ القَصْرِ ومعناه؛ وهو قصرٌ حقيقيٌّ باعْتبارِ وَصْفِ الفَوْزِ بعظيم[3]، والمعنى: لا فوز للمؤمنين والمؤمنات أعظم من هذا الفوز.

دلالة وَصْفِ الفَوْزِ بالعظَيم:

بيان أنّ الفوز، يقصُرُ أمامَه كلُّ فَوْزٍ ويُسْتَصْغَر

جاءَ وصفُ الفَوْزِ بأنَّه عظيمٌ في قولِه تعالى: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لبيانِ أنَّه وحدَه هو الفَوْزُ دون ما يعدُّه النّاسُ فَوْزًا من حظوظِ الدُّنيا الَّتي تُسْتَصغَرُ أمامَه، وتهونُ في كلِّ شيءٍ من أمورِها مُقابلَ عَظَمتِه وجليلِ شَأْنِه[4].

ولمّا كان رضوان اللّه تعالى هو قِمَّة الفوز الَّذي لا فوز غيره ناسبه التَّعبير بقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ بخلاف وصف

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/546.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/546، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/577.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/265.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/546.

الفوز بالكبير الَّذي جاء في سورة البروج بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾ [البروج: 11] فإنَّه جاء مناسبًا لقصَّة أصحاب الأخدود الَّذين حشروا المؤمنين والمؤمنات في حفرة ضيِّقة صغيرة؛ فناسَبَ التَّعبير أن يوسِّع اللّٰه عليهم في الجنَّات بالفوز الكبير مناسبة للحفرة الضَّيِّقة.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»